

بين قميصين

إن ارتباط الإنسان بما يحيط به جيلة جبل عليها منذ نشأته، فأثر فيه وتأثر به، حتى لباسه الذي هو ألقى شيء بجسده وبدنه. بل إن هذا الأخير ذهب مضرًا للأمثال وشكل انعطافات خطيرة وكبيرة في حياة المجتمعات والأمم.

وكمثال على ذلك " القميص" الذي يستخدم لإثبات واقعة ما أو دفع شبهة أو إزالة بلية أو إثارة فتنة ما.

وكمثال آخر "الباب" وما أدراك ما الباب وارتباطه بحياة الأمة، والواقع ما القميص والباب الرموز ترتبط بمصاحب القضية وما يحمله من موقع في حياة المجتمعات.

فعندما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: باب فاطمة بابي وحجابها حجابي فهو لا يعني ذلك الباب الخشبي وإنما أراد أن يقول أن طريق هداية الأمة يمر عبر هذه السيدة الطاهرة. كذلك فعل رسول الله بسد الأبواب كلها إلا باب علي. فهو لم يوصد باب خشب ويفتح باب خشب إنما أراد أن يقول للأمة إن طريق الهداية يمر عن طريق علي عليه السلام ولذلك رأيناه يقول: يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس واديا غيره فاسلك مع علي ودع الناس. هذا هو المقصود بالباب، ولا أريد أن أفصل في هذا الموضوع فله بحث آخر لعلنا نتطرق إليه.

عودا على بدأ، فحديث القميص حديث شائك وشيق في نفس الوقت. فقد وردت لفظة القميص في ست آيات كلها في سورة يوسف عليه السلام وما ارتبط به من أحداث، بخلاف الألبسة الأخرى فإنها وردت في سور متفرقة من القرآن الكريم.

وللقميص معاني عدة فمنها مادي ومنها معنوي، ومما ورد من معانيه في معجم اللغة اخترنا لكم من هذا المعجم وهو قاموس الغني.

1:- قَمِيصٌ أَبْيَضٌ :- لِيَدَّاسُ لَهُ كُمٌّ بَانٍ طَوِيلَانِ أَوْ قَصِيرَانِ، يُرْتَدَى تَحْتَ السُّتْرَةِ وَبِغَيْرِهَا.

2:- قَمِيصُ الصَّبَاحِ :- خَيْطُهُ الْأَبْيَضُ. :- تَسْتَدِيرُ قَطْرُ صَبَاحًا قَبْلَ أَنْ يَنْشُرَ الْفَجْرُ قَمِيصَهُ الْأَبْيَضَ.

2- تَقَمَّصَ

(ق م ص). (فعل: خماسي لازم متعد بحرف). تَقَمَّصْتُ، أَتَقَمَّصُ، تَقَمَّصَ، مصدر تَقَمَّصْتُ.

1:- تَقَمَّصَ قَمِيصًا جَدِيدًا :- لِيَسَهُ، تَقَمَّصَ فِي الْمَاءِ :- اِنْزَعَمَسَ فِيهِ.

3:- تَقَمَّصَ الْمُؤْمِنُ لِلْشَّخْصِيَّةِ الشَّيْخِ :- تَمَثَّلَ لَهَا وَأَحْسَنَ أَدَاءَهَا.

4:- تَقَمَّصَتِ الرُّوحُ :- اِنْتَقَلَتِ مِنْ جَسَدٍ إِلَى جَسَدٍ آخَرَ بَعْدَ الْمَوْتِ حَسَبَ مَا تَعْتَقِدُهُ بَعْضُ الْمُذَاهِبِ.

3- قَمَّصَ

(ق م ص). (فعل: رباعي متعد). قَمَّصْتُ، أَقَمَّصُ، قَمَّصَ، مصدر تَقَمَّصْتُ

1:- قَمَّصَ الثَّوْبَ :- قَطَعَ مِنْهُ قَمِيصًا

2:- قَمَّصَ الْوَلَدَ :- أَلْبَسَهُ الْقَمِيصَ

على أن أشهر قميصين مرا على تاريخنا هما قميص نبي ﷺ يوسف و قميص عثمان... هناك من يريد أن يرفع قميصا آخر بين فينة وأخرى ليشق عصاة الأمة ووحدها.

يا ترى ما كان من خبر قميص يوسف؟ الذي صار مضربا للأمثال في التهمة والعفة والتقوى ومادة تغني بها الأدياء والشعراء. إن السر يكمن في وجدانية النفوس والبعد الملكوتي لشخصية يوسف وإلا ما قيمة هذه

القطعة من القماش التي يرتديها كلنا.

قالوا لقميص يوسف ثلاث حالات:

الأولى- إثبات حادثة، عندما جاءوا به ملطخا بدم يوسف الكذب والذي لم ينجو منه حتى الذئب
"وَجَاءُوا عَلَيَّ قَمِيصَهُ بِدَمٍ كَذِبٍ". فرمزية القميص هنا دلالة على الكذب ووجدانية نفوس
أخوة يوسف.

وفي "قمصان يوسف" لشوقي بزيغ:

" فهذا الزمانُ الذي برَّأ الذئبَ

من شبهةِ الدمِ

فوقَ قميصكَ

ليسَ زمانكُ،

وهذا الحصانُ الذي لم تخنْ

برقَهُ المتردد

خانكُ

وإخوتكَ اتحدوا مع قميصكَ

ضدَ دموعِ أبيك

ولبعضهم:

قميص شوقيّ قد آدمى جوانـيه * * بـُعدُ، وما كان ظني فيه مكذوبا وريح يوسف لا تأتي نساءمُها *
إلاّ لـقلبـه هـواهُ كان يعقوبا

ولجمال حمدان:

قَالَوْا: تَرَكَنَاهُ وَرُحْنًا (نَسْتَبِيحُ) * * لَكِنَّ ذَنْبًا غَادِرًا وَافَاهُ

- أما الحالة الثانية فبراءة متهم. " وإن كان قميصه قُددٌ من دبر فكذبت وهو من الصادقين".
القميص كان هو الدليل هنا، طبعاً مع شهادة الشاهد من أهل الجاني. فجاءت رمزيته في كذب طرف وصدق
طرف آخر وبيان وجدانية نفس كل طرف.

قال جمال حمدان:

فَتَسَابَقًا لِلدَّيَابِرِ يَطُوبُ مَخْرَجًا * * وَقَمِيصَهُ الْمُقْدُودُ
قَدَّ خَلَاهُ

قَالَ انْظُرُوا مَا بِالْقَمِيصِ لِتَعْلَامُوا * * مَنْ ذَا أَصَابَ الْحَقَّ فِي
دَعْوَاهُ

الحالة الثالثة كشف بلاء، ووصل الأوبة " أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني
بأهلكم". طبعاً لم يكن السر في القميص وإن كان في رواية أنه من قمصان الجنة، لكن السر يكمن في
صاحب القميص وهو النبي يوسف وما انعكس على القميص من روحه الملكوتية وجدانية نفسه والألطف
الإلهية.

ومن عجيب اسلوب القرآن ذكر القميص ملوبوساً كما في الحالة الثانية وفيه دلالة على وجدانية النفوس،
وغير ملوبوس كما في الحالة الأولى والثالثة وفيه دليل على الفرقة أو الوصال.

وللشاعر الاندلسي ابن سهل في بيت شعر فيه من الوجد ما ا[] به عليم:

تاقت اليك عجاج أنت يوسفها * * هلا رميت على العميان قمصانا

وقال جمال حمدان:

وَخُذْهُوَ الْفَعْمَيْصَ لِيَوَالِدِيَّ يَمْسَحُ بِهِ ** عَيْنَيْهِ يَرْجِعُ
نُورُهُمَا بِضِيَاهُ

أَلْفَقَاهُ فَوْقَ جَبَيْئِهِ وَمُسَمَّيًّا ** بِاسْمِ الْإِلَهِ ..
فَأَبْصَرَتْ عَيْنَاهُ

وفي " قمصان يوسف " لشوقي بزيغ:

تدورُ الكواكبُ من دونِ يوسفَ لا البئرُ عادتُ بهِ مع خيولِ الشتاءِ ولا الريحُ
تحملُ نحو أبيه الذي شاخَ وقعُ خطاهُ .. ولكنَّ باقةَ عطرٍ تهبُّ على بيتِ
يعقوبَ حاملاً مع قميصِ ابنهِ نجمتينِ اثنتينِ تصبان في بئرِ عينيهِ ضوءهما
المشتهى وتعيدانه من عماه .

أما ما جاء في هذا الباب من استخدام القميص في المعاني الأخرى فتبينه هذه الأبيات الشعرية .

فللمتني:

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ ** قَمِيصٌ يوسُفَ في أجفانِ يَعْقُوبِ

ولأبي العلاء المعري:

سارَ الشَّبابُ، فلم نعرفهُ له خَبَرًا ** ولا رأينا خَيالًا منه مُنْتابا

ألقى الكَبِيرُ قَمِيصَ الشَّرْحِ رَهْنًا بِلِيٍّ ** ثُمَّ اسْتَجَدَّ قَمِيصَ الشَّيْبِ
مُجْتابا

وقال بن معتوق:

تَقَامُ صَوْتُ نَوْبًا مِّنْ دُخَانٍ وَمُهْجَتِي ** عَلَيْهَا قَمِيصٌ مِنْ لَطَاكٍ تَجَسَّسًا

أما قميصنا الثاني فهو قميص عثمان:

في البداية قميص عثمان مثل لكلمة حق يراد بها باطلا... وأصلها إنه بعد مقتل الخليفة الثالث... طالب فريق بالثأر لمقتله بالرغم من أنهم كانوا أول المحرضين على قتله... ورفعوا قميصه المخضب بالدماء أمام الناس في سبيل ذلك، و في سبيل مصلحتهم الخاصة وحدها، فصار ذلك مضرباً للأمثال.

وما أجمل هذه المقطوعة لنزار قباني: "حين يصير الفكر في مدينة"

حين يصيرُ الفكرُ في مدينةٍ

مُسطَّحاً حاكاً كحدوةِ الحصانِ ..

مُدوساً راءً كحدوةِ الحصانِ

وتستطيعُ أيُّ بندقيةٍ يرفعُها جَبانٌ

متى سترحلون ؟

المسحُ انهارَ على رؤوسِكُم ..

متى سترحلون ؟

والناسُ في القاعةِ يشتمونَ .. يبصقونَ

كانتْ فلسطينُ لكم ..

دجاجةٌ من بيضها الثمينِ تأكلونَ

كانت° فلسطينُ لكم° ..

قميصَ عثمانَ الذي بهِ تُتاجرون°

طوبى لكم° ..

على يديكم° أصبحت° حدودُنا من ورقٍ

فألفُ تُشكرون° ..

على يديكم° أصبحت° بلادُنا

إمرأةً مباحةً .. فألفُ تُشكرون°

ويطلع علينا بين الفينة والأخرى من يرفع قميصاً آخر من قمصان الفتنة باستدلاله بـ " عبداً بن سبأ " هذه الشخصية الوهمية ليشق بها عصى المسلمين ووحدة الصف واللحمة الوطنية التي دعت لها الدولة وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين في مشاريعها كالحوار الوطني وغيره .

قبلة الفتنة التي أراد أن يطبعها على جبين هذا الرجل الروحاني، كان يقول ونحن نقول معه: ونفخر أننا أتباع مذهب أسسه - بأمر الله - رسول الله (ص) وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) هذا العبد المتحرر من جميع الفيود والمكلف بتحرير بني الإنسان من أشكال الأغلال وأنواع الاسترقاق.